

عيد "تشونغ يانغ" وتوقير المسنين

يُعدّ عيد "تشونغ يانغ"، الذي يوافق اليوم التاسع من الشهر التاسع في التقويم القمري الصيني، واحدًا من الأعياد التقليدية المهمة في الصين. وقد أكثر الأدباء الصينيون، على مرّ العصور، من التغيّ بعبادته ومظاهره، من صعود المرتفعات اتّقاءً للمكاره، والتزيّن بأغصان القرانيا، والاستمتاع بجمال أزهار الأقحوان، واحتساء نبيذها، إلى تناول كعكة العيد. غير أنّ احترام المسنين وتوقيرهم، وهما الغاية الأصلية التي شرع القدماء هذا العيد من أجلها، لم يحظيا بما حظيت به سائر مظاهر العيد من عناية وذكر.

ويكمن جوهر عيد "تشونغ يانغ" في الدعاء بطول العمر ودوام العافية. لذلك فإنّ رموزه، كأغصان القرانيا وزهور الأقحوان، لا تُعدّ مجرد نباتات خريفية موسمية، بل تحمل دلالات رمزية على طول العمر والبركة فيه. ومن الشواهد على ذلك أنّ الإمبراطور "تساو بي"، الملقّب بـ "ون"، إمبراطور دولة وي في عصر الممالك الثلاث، أرسل في أحد أعياد "تشونغ يانغ" باقةً من زهور الأقحوان إلى صديقه "تشونغ ياو"، وأرفقها برسالة جاء فيها: "مع تعاقب الأعوام والشهور، يطلّ علينا من جديد اليوم التاسع من الشهر القمري التاسع. ولما كان الرقم تسعة من أعداد اليانغ، فإذا اجتمع في اليوم والشهر معًا، استحسّنه عامّة الناس، وعدّوه رمزًا ميمونًا للدوام وطول البقاء؛ ولذلك يقيمون الولائم الكبرى، ويجتمعون احتفاءً بهذه المناسبة... أما زهرة الأقحوان العطرية، فهي وحدها التي تتفتح وتزدهر في هذا الموسم... وليس ثمة ما يضاهيها في تغذية الجسم وإطالة العمر؛ لذلك أقدم إليكم، مع خالص احترامي، باقةً منها، عسى أن تُعينكم على سلوك فنون بينغ تسو في إطالة العمر". وتُعدّ هذه

الرسالة من أقدم الوثائق التي أشارت إلى دلالات عيد "تشونغ يانغ". فقد بيّن فيها "تساو بي" أنّ الرقم تسعة، بوصفه رقمًا من أرقام اليانغ، يدلّ تكراره على الدوام والبقاء. كما أشار إلى أنّ زهرة الأقحوان تُعين على إطالة العمر، على نحو ما تُشير إليه «فنون بينغ تسو»، ذلك الرجل الذي تروي الأساطير أنّه عاش أكثر من ثمانيمئة عام بفضل طرائق حفظ الصّحة ورعاية البدن.

"قد لا يبلغ المرء من العمر مئة عام، غير أنّه يحمل في صدره هموم ألف سنة". فالناس جميعًا يتطلّعون إلى طول العمر وامتداد الأجل؛ ومن ثمّ عرفت الأمة الصينية منذ القدم ضروريًا من الأنشطة الاحتفالية التي يُتمنى بها طول العمر، ويُعبّر فيها عن توقير المسنّين وإجلالهم. وقد ورد في «شي جينغ»؛ أي «كتاب الأغاني» الصيني الكلاسيكي: "في الشهر التاسع، الساحات بالصقيع مفروشة، وفي الشهر العاشر، البيارد بالماء ممسوحة. وللخلان الأباريق موضوعة، وللولائم الحملان مذبوحة. ولصاحب البيت نصعد إلى القاعة تحية، ونرفع له الكؤوس العاجية، ونهتف له بطول العمر والأبدية". ومن ذلك يتّضح أنّ الدعاء بالصّحة وطول العمر كان أحد المقاصد الرئيسة لاحتفالات حصاد الخريف.

ولمّا كان الدعاء بطول العمر لا ينفصل عن توقير كبار السنّ، فقد حرصت الصين في العصور القديمة على اتّباع تقاليد تُعنى برعاية المسنّين، ومواساتهم، وتفقد أحوالهم في موسم حصاد الخريف. وهذا ما يصفه لنا «كتاب الطقوس: مراسيم الشهور» بقوله: "في الشهر الثاني من الخريف... يُرعى المسنّون، وتُمنح لهم المساند والعصيّ، وتُقدّم لهم عصيدة لحم الأيل". ومعنى ذلك أنّ الإمبراطور، أو ابن السماء في العصور القديمة، كان يمنح كبار السنّ في الشهر الثاني من الخريف مساند منخفضة يتكئون عليها عند الجلوس على الأرض، وعصيًّا يستعينون بها على

المشي، إلى جانب عَصيدة تُطهى لهم من لحم الأيل؛ لما في هذا اللحم من فوائد في تغذية الجسم وتقويته. كما أنّ طبخه زمناً طويلاً حتى يصير عَصيدةً يجعله أيسر تناولاً وأخفّ هضمًا على المسنّين. ولعلّ في ذلك كلّ ما يدلّ على أنّ عبارة "رعاية المسنّين في الشهر الثاني من الخريف" لا تعني مجرّد العناية المادية بهم، بل تنطوي كذلك على الدعاء لهم بالصحة وطول العمر. وهذا المعنى يلتقي مع الغاية العامّة من احتفالات حصاد الخريف؛ إذ كان التضرّع بالبركة وامتداد الأجل، كما أسلفنا، أحد مقاصدها الكبرى.

وقد أولت أسرة هان عنايةً خاصّةً بمضمون هذا الفصل، أي فصل «مراسيم الشهور»، فجعلت عبارة "رعاية المسنّين في الشهر الثاني من الخريف" وما اتّصل بها من تقاليد، نظاماً رسمياً من أنظمة الدولة. ويشهد على ذلك ما ورد في «كتاب هان اللاحقة: فصل الطقوس»: "في الشهر الثاني من الخريف، كانت المدن والمقاطعات تُجري إحصاءً للسكان، بيتاً بيتاً. فمن بلغ السبعين من عمره مُنح عَكَازاً، وأُطعم عَصيدة لحم الأيل. أمّا من بلغ الثمانين أو التسعين، فتُزاد له عطايا أخرى". وقد سُمّي هذا العَكَاز رسمياً بـ "العصا الملكية"، لأنّه كان منحةً من البلاط الإمبراطوري. وقد أورد الكتاب وصفاً دقيقاً له، جاء فيه: "يبلغ طول العصا الملكية تسعة أذرع صينية، أي نحو 2.08 متر، ويُنحت رأسها على هيئة طائر اليمام؛ ذلك أنّ هذا الطائر لا يغصّ بطعامه، والمراد أن لا يغصّ المسنّون". فكبار السنّ غالباً ما يفقدون أسنانهم، وتضعف لديهم وظائف الهضم، فيكونون أسرع إلى الغصّة وأقرب إلى العسر عند الطعام. ولمّا كان يُقال إنّ طائر اليمام لا يغصّ بطعامه أبداً، جُعِلَ رأس العصا الملكية على هيئته، تفاوُلاً بأن يأكل المسنّ ويشرب في يسرٍ وسلامة، من غير غصّة ولا عناء. وهذا هو المقصد نفسه من تقديم عَصيدة لحم الأيل المطبوخة

طبَّحًا طويلاً حتى تَلين وتَسهل على المسنّ تناولاً وهضمًا. وتُعَدّ العصا المنقوش على رأسها طائرُ اليمام، التي اكتُشفت عام 1959 في مقبرة تعود إلى أسرة هان بمنطقة موتشوزي في مدينة وُوي بمقاطعة قانسو، دليلاً مادياً على عادة توقيع المسنّين في عهد أسرة هان. وإلى جانبها، عُثِر على عشرة ألواح كتابية من العهد نفسه، دُوّنت عليها أوامر إمبراطورية خاصّة بتوقيع المسنّين وإجلالهم. وقد نصّت هذه الأوامر على منح العصا الملكية لمن تجاوز السبعين من عمره، وأن يُنحت رأسها على هيئة طائر اليمام. وكان حامل هذه العصا يُعامل معاملةً تقارب معاملة من يحمل شارة التفويض من البلاط الإمبراطوري؛ فإذا اعتدى عليه موظف أو أحد من عامّة الناس، عوقب على ذلك بوصفه جريمة عصيان جسيمة، وقد يبلغ العقاب حدّ الإعدام في الحالات الخطيرة.

وفي عهد أسرة هان الشرقية، بدأ تثبيت مواعيد الأعياد في أيام محدّدة من الأشهر القمرية. فحدّد عيد "شانغ سي"، وهو عيد التطهّر وعيد الحبّ الصيني قديماً، في اليوم الثالث من الشهر القمري الثالث؛ وحدّد عيد "دوان وو"، أي عيد قوارب التنين، في اليوم الخامس من الشهر القمري الخامس؛ وحدّد عيد "تشى شي"، عيد لقاء النسّاجة وراعي البقر، أو عيد الحبّ الصيني في صورته الحديثة، في اليوم السابع من الشهر القمري السابع؛ كما حدّد عيد توقيع المسنّين في اليوم التاسع من الشهر القمري التاسع. ولمّا كان الرقم تسعة أكبر الأعداد المفردة، وكان لفظ "تسعة تسعة" في الصينية، أي "جيو جيو"، قريباً في النطق من معنى الدوام والامتداد، كان من الطبيعي أن يُختار هذا اليوم عيداً لتوقيع المسنّين والدعاء لهم بطول العمر. ومنذ ذلك الحين، عُرف هذا العيد باسم عيد "تشونغ يانغ"، أي "اليانغ المزدوج"، أو عيد "التاسع المزدوج".

وقد سُمِّي عيد تبجيل المسنين باسم عيد "تشونغ يانغ"، أو عيد "التاسع المزدوج"، فاستقرَّ له الاسم، وثبت له الموعد. غير أنَّ هذه الأسماء الجديدة، مع مرور الزمن، أخذت تحجب شيئاً فشيئاً مغزاه الأصلي ومعناه الأوّل. فأصبح الناس في العصور اللاحقة يحتفلون به من خلال صعود الجبال، والتنزه في أعاليها، والتمتّع بأزهار الأقحوان، واحتساء النبيذ، في حين خفتت تدريجياً في ذاكرتهم دلالاته الأولى، بوصفه عيداً لتوقير المسنين وإجلالهم. وبعد عهد أسرة هان الشرقية ومملكة وي، غدا صعود المرتفعات ونظم الشعر في عيد "التاسع المزدوج" من فنون الأدباء والشعراء، ومن مظاهر أناقتهم ورفعة ذوقهم. وقد خلّفوا في وصف هذا العيد قصائد ونصوصاً كثيرة، فيها من الروائع ما شاع ذكره وذاع صيته، غير أنّها قلّما تناولت العادات المتّصلة بتبجيل المسنين فيه. بل إنّ السجّلات المحلية، منذ عهدي أسرتي مينغ وتشينغ، لم تذكر من عادات عيد "التاسع المزدوج" إلا صعود المرتفعات، والاستمتاع بزهور الأقحوان، واحتساء النبيذ، وتناول كعكة العيد، وما شاكل ذلك من المظاهر. ولم تستعدّ الذاكرة الثقافية القديمة لهذا العيد حضورها المؤسسي إلا بعد أن أقرّت اللجنة الدائمة للمجلس الوطني لنواب الشعب الصيني، عام 2012، الصيغة المعدّلة من «قانون حماية حقوق ومصالح المسنين في جمهورية الصين الشعبية»، التي نصّت على اعتبار اليوم التاسع من الشهر القمري التاسع يوماً لكبار السنّ. وقد تميّزت الأمّة الصينية، منذ القدم، بفضيلة احترام المسنين وتقديرهم. وهذه فضيلة تقليدية تزداد قيمتها ومكانتها اليوم، مع دخول الصين مرحلة الشيخوخة السكانية. ومن ثمّ، فإنّ المضمون الروحي الأصيل الملازم لعيد "تشونغ يانغ"، والمتمثل في تبجيل المسنين ورعاية مكانتهم، جديرٌ بأن يُستكشف من جديد، وأن يُبعث في الذاكرة والوجدان بعناية وجدية.